Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

موضوعة الطّبيعة في الشّعر الشعبي — شعراء بوسعادة أنموذجا-

سعاد أرفيس. باحثة دكتوراه

قسم اللغة والأدب العربي. كلية الآداب واللغات

جامعة محمد بوضياف . المسيلة .الجزائر

الملخص:

في هذه الدراسة نحاول أن نسلّط الضّوء على الأثر النّفسي للطّبيعة في الشّعر الشّعبي، فالطّبيعة كانت ولا زالت مصدرا ثريّا للإبداع الشّعري، بل هي مرآة عاكسة للحالة الشعورية التي تعتري الشّاعر كالفرح والشّجن والحزن، و قد احتضن الشّعر الشّعبي الطّبيعة صامتها ومتحرّكها ممّا جعل القصائد تصطبغ بلمسة جمالية متميّزة، فالشاعر لم يقف عند حدود المشاهدة الخارجية للطّبيعة، فأحيانا يمتزج في الطّبيعة امتزاجا تامّا، بل حوّلها إلى عالم جمالي ناطق مفعم بالحيويّة والوعي في لغة راقية وفي صور شعرية أخّاذة تشدّ انتباه المتلقي.

الكلمات المفتاحية: الشّعر الشّعبي- الطّبيعة الحيّة – الطّبيعة الصّامتة

Résumé:

Dans cette étude, on va essayer de mettre en évidence l'impact psychique de la nature dans la poésie populaire, car la nature a été toujours considérée comme une source fertile pour la créativité en matière culturelle en occurrence la poésie, en fait elle représente un miroir qui reflète le psychisme d'un poète; joie, tristesse, et dans ce sens il est aussi important de dire que la poésie populaire a parlé de toutes les manifestations de la nature, statique ou dynamique, ce qui a donné une retouche superbe et spectaculaire aux textes de la poésie, et ceci est aussi lié à l'intégration parfaite entre le poète et la nature qui ne se contente pas par l'observation externe de ses paysages, mais plutôt il a pu la transformer et la modeler comme un monde joli, et conscient dans un langage majestueux pour la transmettre aux lecteurs.

شُغِف الشّاعر العربيّ منذ القدم بمظاهر الطّبيعة التي التجأ إليها ليعبّر عمّا يجيش في نفسه من مشاعر، وقد كان استلهامه من كلّ ما في الطّبيعة من حيّ وجماد، وذلك نتيجة تأمّله في خلق الله عزّ وجلّ، كامرئ القيس

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

وذي الرّمة وابن الرّومي والبحتري وإيليا أبي ماضي.. فقد استمدّوا منها تشبيهاتهم وتعابيرهم الشّعرية وذلك لامتزاجهم بها.

أمّا توظيف الطّبيعة وعناصرها في الشّعر الشّعبي فليس بحديث أيضا، ذلك أنّ جلّ الشّعراء الشّعبيين هم أبناء البادية كعبد الله بن كريو، أمهاني أحمد، بوشنافة أحمد، يحي البوزيدي...فكانت الطبيعة المادّة الخام لشعرهم وذلك لامتزاجهم بها، ممّا مكّنهم من ملاحظتها والاندماج فيها بيسر.

قبل أن نلج إلى تمثيلات الشّعراء الشّعبيين للطبيعة في نتاجهم علينا أن نعرّج أوّلا إلى المفهوم اللّغوي للطّبيعة، حيث تكاد تصبّ تعريفات اللّغويين للطّبيعة في قالب واحد، ويتجلّى ذلك عند البحث عن معنى مادة (طبع) في المعاجم اللّغوية: «الطّبع والطّبيعة، والطّباع ككتاب: السّجية التّي جبل عليها الإنسان...والطّبع: المثال والصّيغة، تقول: اضربه على طبع هذا، والطّبع وهو التّأثير في الطّين ونحوه،...وطُبع على الشّيء بالضّم: جُبل»1.

ويقول ابن منظور: « طبع الله الخلق على الطبائع التّي خلقها، فأنشأهم عليها...والطّبع ابتداء صنعة الشيء، تقول طبعت اللّبن طبعا وطبع الدّرهم والسّيف وغيرهما يطبعه طبعا: صاغه..والطّبع هو الختم وهو التّأثير في الطّين ونحوه..وطبع الله على قلبه ختم على المِثل»2، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾3، أي ختم على قلوبهم.

المُلاحِظُ لمادة (طبع) يجد معناها يدور حول السّجيّة والخليقة والجبلّة والصّنعة والمثال والختم..فكلّها مرادفات للطبيعة؛ إذ احتشدت كلّ المعاني المذكورة آنفا في لفظة واحدة وهي الطبيعة؛ فهي تشمل كلّ عناصرها ومظاهرها في الكون الذي صوّره وأبدعه الله عزّ وجلّ.

أمّا عن المفهوم الاصطلاحي للطّبيعة في المعجم الأدبي فإنّه يمكن أن نستدل على أنّها: «قسم من العالم على أن يحرّك في الإنسان إحساسه الفنّي»[4]، إذن الطّبيعة هو ذلك العالم الذي يكون له وقع على النّفس البشرية.

لا يختلف اثنان في أنّ الطّبيعة هي مصدر ملهم للشّعراء، وقد تفاوتوا في توظيفها في قصائدهم فمنهم "من صوّر مظاهر الطّبيعة واكتفى بالنّقل الحرفي لمظاهرها، وهناك من أدمجها في مشاعره، ليؤكّد تعلّقه بها بقسميها الصّامت والمتحرّك، فنقلوا مشاهدا زاهية، تعكس نفسيتهم الطربة، كما نقلوا وجها متجهّما لها يعكس نفسيتهم الحزينة"[5]، فالطّبيعة مساحة تكتنز فيها الحالة الشّعورية التّي يمرّ بها الإنسان الشّاعر، والمتأمل للشّعر الشّعبي عامّة سيلاحظ أنّ الكثير من

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

القصائد الشّعبية على مختلف أغراضها من مدح وغزل ووصف.. قد اغترفت من معين الطّبيعة، وهذا راجع لنفسية الشّاعر المرهفة التي ترى ما لا يراه الإنسان العادي، وسنوضّح هذا مع ذكر بعض التمثيلات التي تعدّ قطرة من بحر إنتاجات الشّعراء الشّعبيين.

1_ توظيف الطّبيعة الصّامتة في الشّعر الشّعبي: ونعني **بالطبيعة الصّامتة** الجماد بمختلف **أنواعه الثلاثة:**

1- الجمادات الطّبيعية المتنوّعة ك: البحر والنّهار..

2- النّباتات: كالزّهر والبساتين والنّخيل...

3- الظّواهر الطّبيعيّة: كالشّمس والقمر والبرق..[6]

تناول الشّعراء الشّعبيون الطّبيعة في أشعارهم ليس بهدف التّغنّي بجمالها فقط أو الاكتفاء بما هو ظاهر وخارجي فيها، وإنّما امتزجوا بها وتفاعلوا معها وجدانيا، بل وجعلوها إنسانا يخاطبونها وتخاطبهم حيث أكسبوها ملامح إنسانيّة وجعلوها « تضحك وتبكي وتطرب وتشقى، وتتاجي وتشكي وتعاني وطأة الوجود وتغتبط به، فكأنّها إنسان سويّ»[7]، ولا يتأتى هذا التّصوير إلاّ لشاعر له رؤية فلسفية عميقة تتجاوز حدود الطّبيعة ونجد هذا عند الشّاعر أمهاني أحمد [8] الذي لفت انتباهه عُرف النعناع الذي يعدّ أبسط شيء في الطّبيعة، إذ نظر إليه نظرة عميقة الدّلالة؛ والتي تشي بـ « التّجاوب الشّعوري بينه وبين مظاهر الطّبيعة»[9].

إنّ المتلقّي لقصيدة أمهاني أحمد سيشعر بإنسانية عُرف النعناع، فقد ألسبه الشّاعر صفات إنسانية والتّي عبّرت عنه الألفاظ الآتية كـ: (يبكي ويشتكي، يتألم ويحزن وكريم وأصيل..) وقد نسج الشاعر قصيدته في أسلوب قصصي مميّز ومشوّق، حيث زاد من ألقها توظيفه لتقنية الحوار بطريقة فنية رائعة؛ ممّا أحدث وقعا جميلا في القصيدة، ففتح دلالات عميقة في فنّية القصيدة وأضفى فيها بهاء خاصّا، كما أنّه يزيل الرتابة والملل الذي قد ينتاب المتلقي من خلال السّرد والوصف الطّويل، وقد ساعد أيضا في إظهار الجوانب الخفيّة في الشّخصيّات المحرّكة للحدث كطيبة الشّاعر وإحساسه المرهف وكرمه،[10] يقول الشّاعر:

ذا عرف النعناع ذابل حيرني — راهو في ظني احطم قبل الأوان
كي احكمتو فاليد رجّه ركبتني — قتلو همك فات همي فالميزان
خدعتك ليام كما خدعتني — وقريت في دار الدنيا قا لمان

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

وش بيك بعد أخضورتك هكذا مثني ورقك يتنسل ونتايا مشيان
يا بالي قا قول فيسع جاوبني ما تخليني دايره بي لحزان

تُبرِز الأبيات السّابقة ملاحظة الشّاعر لعُرف النعناع بجانب بستان، مُلقى على قارعة الطّريق، حمله وتأمّله فاقشعرّ بدنه، وراح يقارن بين حاله وحال عُرف النّعناع وصرّح أن همّ عُرف النّعناع فاق همَّه بكثير، ثم سأله ما الذي حدث لك؟ ويظهر كلّ ذلك من خلال تشكيل لغوي ساحر وبديع حيث نقله من عالم النبات إلى عالم الإنسان مكسبا إيّاه صفات إنسانية ولا يتقن هذا «اللّون إلا شاعر فيلسوف متعمّق وصاحب أفكار خاصة»[11].

ثم ينطلق **عُرف النعناع** ليردّ عن الشاعر ويذكّره بحاله يقول:

قالّي شوف أمنين كنت زهواني ومّا حالتي اتغيرت بزاف الآن
كنت امفحفح ناس ياسر حبتني يتنزه من شافني فسط البستان
الماء الهامل فاسواقي يرويني ونا تائق فاسماء قاعرفي بان
ما بين النوار جاي أمساميني ولحبق جاي أجوار بن نعمان
وفراش الحشيش زاد امحزمني انبان امحرقص قا عروسه بالفستان
وإذا هب الريح عني ميلني يتخلط أبريحت يرجع ريحان
يديها نسيم شور الّمهني والحاير من شمني ينسى لمحان
يعرفني نعناع به أمالفني كما تعرفني أكثير من الشبان
يسعد بي اجميع منه شايفني ونا عايش فسط أرضي في لمان

من خلال الأبيات السّابقة نلاحظ براعة الشّاعر وكيف يختار الألفاظ الجزلة ذات الإيحاء القويّ، التي أظهرتْ أنّ الشّاعر تفاعل مع الطّبيعة بأحاسيسه وجوارحه أكثر من تفاعله معها بعقله، ووصف لنا كيف كانت حالة عُرف النعناع مزهوا بنفسه يخال نفسه عروسا بفستانها الجميل المزخرف، وكيف كان كريما يرسل عبيره حينما تهزّه الرّيح للهانئ والحائر، فيتبدّل حال هذا الأخير وينسى ما اغتمّه في هذه الحياة، ثمّ ينتقل الشّاعر لمعنى آخر بعد أن شكا له عُرف النّعناع، يقول الشّاعر:

حين انجاء عبد جاهل وانترني اقطعني بزعاف وتمتم غضبان
خلّى اعروقي فالثراء عني تسني عرفي يدمع كي العبد لي بكيان
من كره قا شمني ثم أرماني قلبو قاسي ما يسعى ذره حنان

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

أبقيت مرمي لسخانه حرقتني حتى انجيت ألقيتني يا ذا الإنسان

لكان ما ليام والقدرة ثاني ما نرجع في يد شاعر أ فنان

أنتاي فطين حقك تعرفني ما تقولش راه أحطم ضرك يتهان

ونا يابس ريحتي ما تخطيني ولقموا بي التاي أعلى الحمان

خايف منك في أبياتك تهجني وتشفي في أكثير أمن العديان

إنّ المتأمّل لهذه الأبيات سيلاحظ مدى عمق العبارات، فالشّاعر اختار الكلمات الجزلة ليجعلنا نندمج معه ونعيش ألم عُرف النعناع الذي تسبّب فيه إنسان جاهل، قام بقطعه بعنف ووحشية وهذا ما تُعبّر عنه لفظة "**انترني اقطعني**" ثم يضيف أنّه ترك جذوره وعُرفه يبكيان كالإنسان من شدّة الألم وهذه الصّورة حوّلت عُرف النعناع إلى إنسان يبكي وهذا الأمر غير مألوف لدى الشّعراء؛ ولكن نظرا لخصوبة الخيال لدى الشّاعر جعلته يرى ما لا يراه غيره. وتزداد حدّة ألمه لما اشتمّه ورماه بسرعة معبّرا عن هذا بقوله: "**قا شمني ثم ارماني**" فكلمة **قا** تدلّ على اللامبالاة وسرعة الفعل، وبقي على حاله إلى أن أحرقته الشّمس فأصبح يابسا، ولكنّه سعد لمّا أصبح بيد الشّاعر الفنّان، ثم أفصح له أنّه ما زال محتفظا بقيمته وفائدته حتّى وإن أصبح حطاما؛ فرائحته تعبق المكان وله نكهة مميزة تضفي على الشّاي السّاخن ذوقا مميّزا، لكنّ هذه الحالة الشّعورية سرعان ما انكسرت حينما تذكّر أنّه في يدي شاعر قد يهجوه ويذمّه في شعره[12]. فهنا يطلب الشّاعر من عُرف النّعناع أن يوقف شكواه فهو مرهف الحسّ وقد تعذّب لعذابه، ثمّ طمأنه بأنّه سيخلّده في أبياته أخضرا حيا على مرّ الأيام، عن هذا المعنى يقول الشّاعر:

يا ذا العرف غير حبس بركيني والشاعر حساس فايت كل إنسان

أنخبيك في أصفايحي ما تخطيني ضمن أبياتي انخلدك عبر الزمان

كي تلقاك أجيال غير كون أمهني تحسبك لسع كنت فسط اجنان

ونروح فسط أحمايتك أنا ثاني ورحموا عني أشيوخه والشبان

وقولوا هذا أحمد زيد أم هاني في بوسعادة كان ذا الشاعر سكان

من خلال الأبيات السّابقة نلاحظ أنّ الحرف النّون تكرّر 114 مرّة أكثر من الحروف الأخرى، فحرف النّون من الحروف الجهرية وقد جاء **رويّا**، بل إنّه في كلّ نهاية شطر منها؛ ممّا

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

أشاع في القصيدة جوّا حزينا مليئا بالآهات والأنين التي تختلج نفسه؛ وقد وُفّق الشّاعر في اختيار حرف النّون، إذ يعدّ الأصلح "للتّعبير عن مشاعر الألم والخشوع"[13]؛ فـ"**عُرْفُ النّعناع**" لم يستطع أن يخفي حزنه وألمه عن الشّاعر، فالشّاعر برع في إيصال رسالة إلى المتلقي عبر قصة عُرف النعناع الذي يعبّر عن أي شخص قد يمرّ بحالة عُرف النّعناع؛ إذ يهدف إلى معالجة الواقع والتّخلص من مظاهر سيئة كأنانية ذلك الإنسان الذي قطع غصن النّعناع وانتعش بريحته ثم رماه عندما حصل على مُرادِه.

وفي قصيدة أخرى للشّاعر أمهاني أحمد الموسومة بـ "ما يغرك زهو الدّنيا" النّي عبّر فيها عن شعوره بالنّدم؛ إذ جاءت معبّرة عمّا كان وما سيكون، حيث وضّح فيها فاعلية الزّمن، والذي ظهر عنده من خلال تمثيله لتغيّر الحال إلى حال أخرى، ممّا استدعى استحضاره للموت فنتج عنه رؤية معتّمة لكلّ ما يحيط بها من مظاهر الحياة وملامحها بالانتقال من جهة ما كان إلى جهة ما سيكون[14]، مثل قوله[15]:

وذا شفت أنهار صاحي بڤوايل يزها فيه الطّير يتعلاّ حايم

أتفكّر يوم ارعد ونت خاجل ولاوح بصواعق بهم راجم

والبرڤ البڤاص فالظّلمة شاعل والأرياح اتريّب الّي هُ قايم

نلاحظ براعة الشّاعر حينما وظّف عناصر الطّبيعة الهادئة كـ: النّهار والطّير المحلّق ليعبّر عن الرّاحة والسّكينة النّي كانت تكتنف الإنسان الغافل ثمّ وضّح كيف يتبدّل الحال حينما وظّف عناصر الطّبيعة الصّاخبة والمخيفة كالرّعد والصّواعق والظّلام والريح العاتية التي تحطّم كلّ شيء، وذلك محاولة منه إسداء النّصح والإرشاد على أنّ هذه الدّنيا زائلة.

ومن الموضوعات الحزينة النّي نظم الشّاعر فيها كالإساءة للرّسول صلى الله عليه وسلم فيستعين بعناصر الطّبيعة لينقل للمتلقي ما يعتري ذاته من ألم وحزن يقول:

يقول الشّاعر أم هاني أحمد[16]:

كانت لرض أمغطية بليل اسوّد والسّما هي حازنه في حدادي

لا طريڤ اتبان والبرد اجمّد والنّاس تايها بين شعبَهْ والوادي

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

فالمتأمل للأبيات يلاحظ براعة الشّاعر في تعبيره عمّا يعتري داخله من ألم وحزن بألفاظ استعارها من الطّبيعة كالليّل الذي يعبر عن الظلام ولم يكتف بهذه المفردة؛ بل أردف له صفة السّواد ليؤكّد شعوره بالضّياع، والسّماء المتلبّدة بالغيوم لتدّل على حزنه الشّديد،..كلّ هذه المعاني أبرزها الشّاعر بمساعدة مظاهر الطّبيعة.

من خلال ما سبق نستنتج أنّ الطّبيعة ترجمان لأشجان وأحزان الشّعراء، فلقد عرف الإنسان منذ القدم شعور الألم والحزن، فهذا شعور طبيعي لأنّه مثله مثل المشاعر الأخرى التّي تجتاح الإنسان كالسّعادة والفرح... وقد جسّد الشّعر الشّعبي هذا التّصوير بشكل رائع ومميز يجعلنا نغوص مع الشّاعر في بحر حزنه، ويجعلنا نشاركه ونتقاسم معه تلك المشاعر الحزينة، فالشّاعر الشّعبي عبّر عن آلامه وشجنه في شعره لأنه متنفّس وراحة له من خلال إخراجه لتلك الآهات في قوالب لغوية ذات أبعاد جمالية وقيمة دلالية، لذلك جاءت قصائده ملوّنة بألوان الحزن المختلفة، وذلك بأسلوب بديع[17].

في حين نجد لونا آخر تفنّنت فيه ريشة الشّاعر الشّعبي حيث رسم لنا قصائده بألوان الطّبيعة الفرحة والزّاهية نذكر على سبيل النّموذج قصيدة الشّاعر قذيفة البشير في مدحه الشيخ عبد السلام[18]:

نت الغيث اللي نزّل في أرض القب باذن الله يليان بخضار ترابو

ونت الورد اروايحو زينة تعجب ونت شجر الخير واثمارو طابو

ونت نخيل الزاب واجبال المغرب ونت الربيع امزخرف باعشابو

نجد الشّاعر قد استعان بعناصر الطّبيعة لتلوين قصيدته، لأنّها خير وسيلة للتّعبير عن حبه لممدوحه، ولأنّ كلّ عنصر منها له وظيفته عند الشّاعر في وصف الممدوح وحالته الشعورية، ونلاحظ براعة الشّاعر في اختيار الألفاظ الجزلة المناسبة؛ صِنو: لفظة الغيث بدل المطر في تشبيه ممدوحه؛ لأنّ لكلّ منهما معنى خاصا به، فالغيث تدلّ على الخير، أمّا لفظة المطر تدلّ على العذاب فالقرآن الكريم لم يذكر لفظة المطر إلاّ في مواضع العذاب ونستدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ**﴾[19]، كما اختار الشّاعر كلّ جميل ليدلّ به على الولي الصّالح فلفظة الغيث تدل على الحياة، ورائحة الورد تدل على الطيبة، والشّجر يدل على الأصالة، وثمارها على الكرم والخير، أمّا النخيل والجبال تدلّ على الثّبات والصّلابة والرّفعة، وتشبيهه بالرّبيع يدل على اللّطافة والطمأنينة والجمال والخير وغيرها

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

من صفات الطّبيعة المميّزة والجميلة التي وشّح بها قصيدته، فقد رسم لوحة ماتعة بعناصر الرّبيع، فالشّاعر أبرز إعجابه بعناصر الطّبيعة في فصل الرّبيع وهذا له وقعه الخاص في نفس كل إنسان، فجعل كلّ عنصر مميز متصل بممدوحه الشّيخ.

والملاحظ تكرار الضمير المخاطب (نت) أي "**أنت**" الذي يتردد في فضاء القصيدة كان له وقع مميّز لأنّ تكراره شكّل انحرافا عن المألوف؛ إذ ليس من المألوف أن تتلاحق هذه الظاهرة كل هذا التّلاحق، فهي إذن ليست سوى تعبير عماّ يعتري النّفس بين جوانحه من المشاعر[20].

فالهدف من التكرار تكثيف الصّور الفنية، لتكتسب أبعادا جمالية مميزة فهو« يسلّط الضوء على نقطة حسّاسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها... فالتكرار يضع في أيدينا مفتاحا للفكرة المتسلطة على الشّاعر، وهو بذلك أحد الأضواء اللاّشعورية التيّ يسلطها الشّعر على أعماق الشّاعر فيضيئها بحيث نطلع عليها، أو لنقل أنّه جزء من الهندسة العاطفية للعبارة يحاول الشّاعر فيه أن ينظم كلماته بحيث يقيم أساسا عاطفيا من نوع ما »[21]، فالتكرار هنا ليس مملّ ولا تعبئة البياض بل شكّل سمفونية رائعة في جوّ القصيدة.

ومن الشّعراء الذين وظّفوا **الطّبيعة الصّامتة** نجد الشّاعر العطوي عبد القادر في قصيدته المعنونة بـ "إذا اتحب الزّين" [22] يصف المرأة الحسناء من خلال الطّبيعة الصّناعية والصّامتة يقول:

العين اللي مزرقطة نعت الخملة ما نسجتها لا خلالة لا يدين

هنا الشّاعر شبّه عين المرأة ذات ألوان بديعة بالخملة وهي نوع من الزّرابي الراقية والجميلة، فالخملة تتسع لمعنى المخملي النّاعم كما تتسع لمعنى جامع ومتعدد الألوان الرائعة.

ثمّ يمضي الشّاعر في وصف لون خدّ المرأة حيث استعمل لون الورد مقابل لحمرة الخد، ويصف لون التبروري مقابل لبياض أسنانها، أخذ الشّاعر كل جميل من الطبيعة ووصف به المرأة الحسناء وهذا نظرا لملاحظته وتأمّله الدّقيق للطّبيعة يقول الشّاعر:

وعلى الخد اتشوف نوار الدفلة والتبروري[23] لاح ع النّاب وسنين

أمّا طول المرأة مثّله بالنّخلة وطيبتها بثمارها كقوله:

زين القد مسلسلة نعت النخلة اتودّك بثمارها من حين لحين

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

يبرز لنا الشّاعر سمة أخرى تتحلّى بها بعض النساء كالطّيبة وحسن الخُلق حيث شبّهها بالدّقلة وهي أجود أنواع التّمور وأطيبها على الإطلاق، كيف لا وقد ذكرت في القرآن الكريم.

ومن الملاحظ أنّ الشاعر العطوي قد طرّز قصيدته ووشّحها بصور الطبيعة ليصف لنا المرأة الحسناء، فقد استعار من الطبيعة كل جميل فيها ونسبه للمرأة.

ونجد الشّاعر أحمد نوبيات قد نسج قصيدته بكلّ ما هو طبيعي ليعبّر عن حبّه لأمّه، فجاءت قصيدته رائعة ملوّنة بالصّور البيانية وكذا التّشبيهات، يقول في قصيدته المعنونة بـ "وجه الجنّة"[24]:

ورد الجنّة يا امّا في وجهك بان امفتح زاهي لا يموت ولا يذبل

ما غطّاه اجليد ما صهدو حمّان جو اربيع امواالفو لا يتبدّل

أجاد الشّاعر في توظيفه للطّبيعة الصّامتة حيث شبّه وجه أمّه بورد الجنّة والمعروف أنّ كلّ ما في الجنّة من ثمار وغيرها خالد أزلي، وممّا زاد من قوّة المعنى وعمقه حينما جمع بين متضادين (اجليد، حمّان)، في عجز البيت وشبه نوبيات وجه أمّه بالرّبيع الذي يجمع بين اللّطافة والجمال و الطّمأنينة ثم استعير اللّفظ على المشبّه على سبيل الاستعارة التّصريحية[25].

ولم يكتف الشّاعر بهذا القدر بل جعل وجه أمّه مصدر نور للقمر، ومنبع الألوان الزاهية للشّمس فكلّ صباح تطبع الشّمس على خدّ الأم قُبلة لتأخذ منها ألوان الحياة، وأجاد الشّاعر حينما جعل من القمر والشّمس يستمدان النّور والجمال من الأم، وذلك لعلوّ مكانة أمّه في قلبه، يقول الشّاعر:

حط البدر على جبينك زاد ازيان النّور اللّي في جبينك بيه أكمل

جات الشّمس أدّات من وجهك للوان كل اصباح اتزور وجهك واتقبّل

ومن خلال ما سبق تبيّن لنا أنّ الشّاعرَ الشّعبيّ نشأ في أحضان الطّبيعة فكيف له أن لا يتأثّر بها؟ وهو مخلوق مرهف الحسّ، فالشّعر العربي منذ القدم « قد نما وازدهر منذ طفولته في أحضان الطّبيعة، وقد كان صدى عميقا لهذه البيئة بخيرها وشرّها في أحسن أيامها خصوبة ونعيما، وأشقى أوقاتها بؤسا وضيقا»[26]، ومن هنا نؤكّد على أنّ الشاعر يغترف من بحر الطّبيعة بمختلف مظاهرها وفق حالته الشّعورية ليشكّل سمفونية ونسيجا محكما رائعا تطرب لها الآذان والقلوب.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

2_ توظيف الطبيعة الحيّة (الناطقة) في الشّعر الشّعبي:

نقصد **بالطّبيعة الحيّة** كلّ متحرّك فيها من حيوانات بنوعيها الأليفة والمتوحشة، ولقد كان لدى الكثير من الشّعراء موهبة وقدرة بارعة على تطويع مظاهر الطبيعة بإبداع آسر ليس له حدود، حيث أحسن الكثير من الشّعراء استغلال صورة الطّبيعة ليعبّر لنا عن المعنى الذي يريده بأقلّ العبارات وأدقّها معنى.

ومن الشّعراء من تفنّن في نسج قصائده بخامات الطّبيعة نجد الشّاعر العطوي عبد القادر[27] لمّا أراد وصف المرأة الجميلة أخذ كل ما هو طبيعي حي (ناطق) جميل ووشّح به قصيدته، يقول الشّاعر في قصيدته الموسومة ب " إذا اتحب الزين"[28]:

إذا اتحب الزّين سافر لنقبلة	**تلقى مكروسات راهم محجوبين**
هيا بنا نقصدوه على غفلة	**متربي حذري لان شاف الصيادين**
تلقى الطاوس ولحبارة والحجلة	**تلقى ريم الوحاية ولجدل بوقرنين**
تلقى البكرة اللي تواتي للرحلة	**تلقى اللبة اللي اتعافر بالعينين**

يبتدئ الشّاعر قصيدته هذه بإرشاد من يريد البحث عن المرأة الحسناء والخلوقة فعليه أن يتوجّه إلى القبلة على حدّ تعبيره، والقِبلة تعني المناطق السهبية قُبالة الشّمال؛ الفاصل بين التل والصّحراء، سيجد فيها الفتيات الحسناوات ماكثات في بيوتهنّ، ويطلب من المتلقي مرافقته دون علم الفتيات لأنّهن على حذر، مثلهن مثل الغزالة والظبية؛ إذ أنّها شديدة الخوف تهرب لما ترى صيادا يتربّص بها فتتوارى عن الأنظار، والمتأمّل للبيت الثالث يجد أنّ الشّاعر كثّف من التّشبيهات البليغة حيث شبّهها بأصناف الطّيور كالطّاووس الذي هو من الطيّور الجميلة الفاتنة التي تستحوذ على إعجاب كلّ من يراها، فالطاووس يتمتع بريش رائع؛ به الكثير من الألوان المتناسقة البديعة، والمرأة التي يتحدّث عنها الشّاعر تتمتع بجسم متناسق، أمّا تشبيهه للطائرين الحبارى والحجلة فهما يتميّزان بالطّيران الجميل وكذا بالمرونة والانسيابية ويضرب بهما المثل لأنهما تتمتّعان بجسم ممتلئ وجميل؛ فالمعروف عن طائر الحجلة جماله وخوفه، وهنا يعبر عن حياء المرأة، ثم عرج إلى صنف آخر من النّساء وهي المرأة الصبورة وقد شبهها بالناقة في البيت الرابع (البكرة/الناقة) لأنّها تتحمّل مشاق رحلة الحياة فهي رمز للقوّة والصّبر والأناة، كما تدلّ على المرأة القوية التي تتعرض لنوازل الغيب[29]، وهناك ضرب آخر من النساء والتي شبّهها باللّبّة أي اللبؤة لقوّتها فهي سيّدة الموقف في

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

بيتها. فالملاحظ للتشبيهات السابقة أنّ الشاعر ابن البيئة الصّحرواية حيث أخذ منها ما يدّل على المرأة الجميلة التي تتمتّع بالجمال والحياء والرّشاقة والصّبر والقوّة.

ثمّ يعرض لنا الشّاعر صنف آخر من النّساء التي تشبه النّحلة في نشاطها اليومي وحيويتها في الحياة، يقول الشّاعر:

تلقاها متحزمه مثل مثل النّحله تقضي طول النّهار تهقش باليدين

كما يكثر ذكر الطّائر القمري في مطالع القصائد الشّعبية، فهذا الاستهلال يستقطب اهتمام المتلقي ويجعله يتفاعل مع موضوع القصيدة، غالبا ما تبتدئ قصائدهم بتكليفه برسالة من الشاعر إلى الحبيب، يحمّله فيها حنينه أو عتابه بأنّه لم يهتم لحاله، وهذا ما عُرِف به شعراء بوسعادة فالحمام رمز للسّلام كما أنه قد يدلّ على الحزن والحنين والبكاء في قصائد الأولياء الصّالحين، وقد كان الحمام وسيلة نقل الرّسائل منذ القدم[30]، ومن أمثلة هذه البدايات يقول الشّاعر بوشنافة الحمدي:[31]

يا قْمري يهديك تفعل شي مزيّة من وصّاك تروح لأهلو واحبابوا

من عندي قاخوض هاذي القصيّة شف الجو اللّي سحاباتو رابو

بجناحك عجلان فوّت المشّاية ماتامنش الطيور شطر بعطابو[32]

نلاحظ أنّ الشّاعر يخاطب القمري وكأنّه إنسان يسدي له جملة من النّصائح التي ترسم له الطّريق بغية الوصول إلى حبيبه سالما.

أو قول الشّاعر في إرساله رسالة لخير البريّة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم عن طريق لزرق (ذكر الحمام القمري):

كَلَفْتَكْ يا لزرق	**يا ساكن كاف وعرا**
ادّي كتبي وشرّف	**لَتَامَن طير يسحف**
انت رسول حاذف	**تصف بابا الزهرا**
خفّف وادّي جوابي	**تصف سيدي العربي**

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

نا شوف ليه قلبي	قلبي لا باش يبرا

نلاحظ أنّ الشّاعر قد استهلّ قصيدته بمخاطبة ذَكَر الحمام بقوله: **(كَلَفْتَكْ يا لزرق)** ثم يمدحه كي يحمل رسالته للحبيب محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: "**انت رسول حاذق**" أي ماهر وأمين وذكي ..وغيرها من الصّفات الحميدة.

وهناك من الشّعراء من يبتدئ بوصف هذا الطائر بصفات رائعة ثمّ يحمّله الرسالة التّي غالبا ما تحوي على مشاعر مؤلمة أو يبث فيها شوقه لشيخه، فالشّاعر يمدح هذا الطّائر الذي أنزله منزلة العاقل بل جعله إنسانا يخاطبه ويترجّاه في نقل شجن الشّاعر ومشاعره (عتاب، شوق..)، فأحسن الاستهلال « ما ابتدئ به من أحوال المحبين ما كان مؤلما من جهة، ملّذا من جهة أخرى كحال التذكّر والاشتياق وعرفان المعاهد»[33]، مثل قول الشّاعر يحي البوزيدي[34]:

خيراقمري الاصطاح أخضر الجناح لونك فيه التبداح زينك شهّاني

إدّي كتبي وارواح شور سيد الأملاح لعرج قطب الصلاّح شيخ رباني

لعرج قطب الصلاّح ماجا للمداح نا قلبي فيه اجراح ذاك دخلاني

ونجد من الشعراء من وصف أعداء الإسلام بمظاهر طبيعية ناطقة أخذ الصفات السّلبية فيها ونسبها لهم كالوحوش والحمير والأبقار يقول الشاعر الحمدي بوشنافة[26]:

مثل اوحوش امعمرا بيكم لقطار ولا احمير اتصوق فيهم حمالا

الصّيفا عيباد والعقول ابقار ما تدروا ماراه فالريسالا

وقول الشّاعر في وصف حالة العرب بسبب أعداء الإسلام حيث رمز للعرب بالوداعة والمسالمة والضعف كل ذلك عبّر عنه لفظ (الغنم) وهي حيوانات أليفة مسالمة؛ فهي لا تستطيع أن تواجه الأعداء وقد رُمِز لهم بلفظ (الذئاب) و(الوحوش) وهي حيوانات متوحشة مفترسة هذا اللّفظ يدلّ على الحيلة والمكر والقوّة، يقول أحمد أمهاني:

كي لغنم الهاملة لا من إرد تلفت في لوعار بين الكردادي

وبقات هي سهم اذيابه تتقصد وضبوعه هي جاتها للتكدادي

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

والوحوش أمقعده قا تترصد طاف غْلى من طاف في ذا البوادي

وقوله:

نبح الكلب ما يخوّفش الأسد والْمِرْ ما يهزّوش تعواق ألشادي

لجأ الشّاعر إلى إدراج **نبح الكلب والقرد** ليدل على كثرة الكلام دون فائدة وكلّها تعبر عن حالة الضّعيف، وهذا لن يخيف أو يضر **الأسد والنمر** وكلاهما رمز لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم فهو قوي وشأنه عال رغم أنف الأعداء.

ومن خلال ما سبق نلاحظ أنّ الشّاعر الشّعبي نجح في نقل تجربته النّفسية إلينا وذلك من خلال توظيفه للعناصر الفنية توظيفا مميزا، لا يقل عن الشّعر الفصيح في توظيفه لتلك الأدوات الفنية، فقد نقل إلينا ما يجيش في داخل الشّاعر من أحاسيس وأفكار يخرجه في قوالب لغوية متناسقة[35]، فالصّورة الشّعرية ما هي إلاّ وسيلة تعبير وتأثير تعمل على إظهار « سمات صاحبه وخصائصه الشّعورية والتّعبيرية، وكشف العوامل النّفسية التّي اشتركت في تكوينه والعوامل الخارجية لذلك»[36]، وما زاد من روعتها تمثيلهم لها بصور من الطّبيعة ممّا جعل المتلقي يندمج معه في مراده.

وقد ظهرت الصّورة الشّعريّة والفنيّة بكلّ أضربها نظرا لدورها البارز في استمالة ذهن المتلقي نظرا للطّريقة « التّي تفرض بها علينا نوعا من الانتباه للمعنى الذي تعرضه، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى، ونتأثر به»[37]، فالتّجربة الشّعرية التّي عايشها الشّاعر الشّعبي جعلها تتميّز بتلقائية مميّزة ومختلفة في آن نفسه.

خاتمة ليس بغريب أن نجد الكثير من الشّعراء الشّعبيين قد توشّحت قصائدهم برداء الطّبيعة الصّامتة والنّاطقة؛ فالشّاعر ابن البيئة الصّحراوية. كما نلاحظ حضور الصّور الشّعرية، بل هناك من جعلها صورا مكتظة ومتلاحقة في قصيدته نظرا لتجربته الشّعرية التي تجعله يجنح للخيال والرّمز ليعبّر عمّا يختلج في صدره من مشاعر سواء كانت حزينة أم طربة، وقد ظهرت هذه الصّور من خلال توظيف الشّاعر للخيال والرّمز والاقتباس والتّضمين وتقابل الثّنائيات الضّدية في قصيدته.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

–أجاد الكثير من الشّعراء الشعبيين في اختيار الألفاظ الجزلة المناسبة للمقام والسياق، فقد استعان الشّاعر الشّعبي بالصّور وجعلوا من الطّبيعة الجامدة لها روحا حيّة من خلال توظيف الاستعارات، فقد حوّل الطبيعة إلى إنسان له إحساس، وهذا نتيجة الخيال الخصب الذي يتميّزون به.

– جمع الشاعر بين الوصف الحسي والمعنوي في شعره وذلك من خلال توظيفه للطّبيعة.

– براعة الشاعر الشعبي في أنسنة الطّبيعة (الناطقة والصّامتة) حيث اقترب منها حدّ التّماهي والاندماج فيها ممّا أكسب شعره جمالا آسرا مبهرا؛ وقد جاءت معاني الطّبيعة تحت مظلّة معنى الفرح والحزن باختلاف موضوعاتهما.

– موضوعة الطّبيعة موجودة في شتّى الأغراض حيث لم يوظفها الشّاعر كأيقونة فوتوغرافية بل وظفها كأداة تعبيرية تأثيرية في المتلقي لشعره بغية إيصال مشاعره وأفكاره.

– ارتكازه على الصّور البيانية (التّشبيه والاستعارة..) وذلك لابتعاد عن اللغة التقريرية المباشرة، ممّا أسهم في بناء الصّور الفنية وهذا دال على مخزونه الثّقافي في توظيفها.

الهوامش والإحالات:

1 – الفيروز أبادي: القاموس المحيط، تحقيق أنس محمد السّامي، زكرياء جابر أحمد، دار الحديث،د ط، 2008.ص991/990.

2- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشّاذلي، مج4، ج92 دار المعارف، القاهرة، د ط، د س، ص2635.

3- النحل: 108.

4 – جبور عبد النّور: المعجم الأدبي، ، دار العلم الملايين، بيروت، ط1، 1979، ص163.

[5] – سعاد أرفيس، الشّعر الشّعبي الدّيني في بوسعادة – دراسة موضوعاتية فنيّة–' رسالة الماجيستير، إشراف علي بولنوار، جامعة المسيلة، 2015/2014، ص 127.

6 –حسين عطية علوان السّلطاني، الطّبيعة في شعر أحمد الحلي (1917–1999م)، مجلة بابل/ العلوم الإنسانيةن المجلّد 25، العدد 5، 2017، ص 2095.

7– إيليا الحاوي، فن الوصف وتطوّره في الشّعر العربي، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، ط2، 1967، ص12.

[8] – الشاعر أمهاني أحمد، المدعو باسم عامر ولد في 02 سبتمبر 1945 ببوسعادة ، متقاعد كان يعمل كتقني سامي في الصّحة، فالشّاعر متعدّد المواهب حيث يكتب في الحكم والأمثال الشّعبية وكذا الألغاز الشّعبية، وقد بدأ الكتابة في الشّعر الشّعبي عام 1962 له أكثر من 307 قصيدة في شتى الأغراض، كما له أكثر من2221 حكمة شعبية وأكثر من 128 لغزا شعبيا. تحصّل الشّاعر على العديد من الجوائز الوطنية والدّولية.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

9 –عبد المحسن طه بدر: التطوّر والتّجديد في الشّعر المصري الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ط، 1991، ص203.

10 –عُرف النعناع: قصيدة مخطوطة لدى الباحثة ويمكن اطلاع عليها من خلال اليوتيوب مقطع من حصة ليلة الشّعراء التلفزيونية – محطة ورقلة يوم 28 جانفي 2012، على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=Q8zyUA5xQVg

11 محمد التنوجي، المعجم المفصّل في الأدب، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1992، ص562.

[12]- للاستزادة أكثر يمكن الاطلاع على دراسة، علي بولنوار، الشعر الشعبي الجزائري منطقة بوسعادة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2010، ص202.

13 – حبيب مونسي، توترات الإبداع الشّعري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2009، ص47.

[14] – سعاد أرفيس، الشّعر الشّعبي الدّيني في بوسعادة – دراسة موضوعاتية فنيّة–' ص.129.

15- المرجع نفسه، ص145.

16- المرجع نفسه' ص139.

[17] - المرجع نفسه، ص104.

18– المرجع نفسه' ص181.

19– هود: 82.

20- وهب رومية، الشعر والنّاقد، عالم المعرفة، الكويت، عدد 331، 2006، ص70.

21– نازك الملائكة: قضايا الشّعر المعاصر، منشورات مكتبة النهضة، ط3، 1967، ص242–243.

22-العربي دحو، معجم شعراء الشعر الشعبي في الجزائر– من القرن 16 إلى أواخر العقد الأول من القرن 21–، ص313.

23– التبروري :البَرد

[24]– العربي دحو، معجم شعراء الشعر الشعبي في الجزائر– من القرن 16 إلى أواخر العقد الأول من القرن 21، دار اللمعية، الجزائر، ط1، 2001، ص57.

[25] – سعاد أرفيس، الشّعر الشّعبي الدّيني في بوسعادة – دراسة موضوعاتية فنيّة–' ص132.

26– أحمد فلاق عروات: تطور شعر الطبيعة بين الجاهلية والاسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، ص111.

27– الشّاعر عبد القادر العطوي: ولد الشاعر المعروف بابن شراب الواد في عام 1973 بأولاد سيدي زيان بعين الملح ولاية المسيلة، يشتغل حاليا كمدير مدرسة.

[28] – العربي دحو، معجم شعراء الشعر الشعبي في الجزائر، ص313.

[29] – بهجت عبد الغفور، مكونات القصيدة الجاهلية ودلالتها الموضوعية والفنية، المورد، العدد 04، العراق، 2007، 45.

[30]– سعاد أرفيس، الشّعر الشّعبي الدّيني في بوسعادة – دراسة موضوعاتية فنيّة–' ص106/105.

[31]- الشّاعر الحمدي بوشنافة:ولد الشاعر بتاريخ 1946/11/08 بجبل امساعد نشأ في أسرة محافظة متوسطة الحال، درس في زاوية الهامل، والشّاعر من حفظة القرآن الكريم.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

[32] – سعاد أرفيس، الشّعر الشّعبي النّيني في بوسعادة – دراسة موضوعاتية فنيّة–' ص161.

[33] – القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، القرطاجني، ص274.

34- الشّاعر يحي البوزيدي: هو يحي بن لمبارك تتلى تعليمه الأوّل من قبل أبيه لمبارك البوزيدي ودرس في زاوية الشيخ المختار بأولاد جلال ببسكرة، وأخذ قسطا من تعليمه في زاوية علي بن اعمر في طولقة وكان ضريرا، علّم القرآن في المجدل وسليم، له مقالات في الفقه والشّريعة، وله ما يربو عن 300 قصيدة في الشّعر الشّعبي، كلها ، مات قبل محاد بلقاسم بـ 15 سنة ويفترض 1815م.

35 – سعاد أرفيس، الشّعر الشّعبي النّيني في بوسعادة – دراسة موضوعاتية فنيّة–، ص31.

36– سيد قطب: النّقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2003، ص07.

37 – جابر عصفور: الصّورة الفنية في التراث النّقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثّقافي العربي، بيروت، ط3، 1992، ص327.